كتب بالعربية

حوار مع معين الطاهر، الكتيبة الطلابية: تأملات في التجربة

حاوره: الياس خوري وميشال نوفل

بيروت: منشورات ضفاف، ٢٠١٥. ١٥٤ صفحة.

تماهت المقاومة الفلسطينية زمناً مديداً مع صورة الفدائي الملثّم الوجه بالكوفية السوداء المرقطة، وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر العيون والشفاه، وبدا أن لهذه الأخيرة سيرة ترويها عندما يتعلق الأمر بتجربة نموذجية في سياق "الثورة في قلب الثورة".

يذهب الحوار الذي أجراه الياس خوري وميشال نوفل مع معين الطاهر، في اتجاه استعادة تجربة رائدة في النضال الفلسطيني، هي أشبه بمراجعة "نقدية" لتجربة الكتيبة الطلابية، "كتيبة الجرمق" لاحقاً داخل الثورة الفلسطينية، وذلك من خلال تنشيط ذاكرة القائد الثاني لها، معين الطاهر، بعد استشهاد قائدها الأول، سعد جرادات، في بيروت في سنة ١٩٧٦. وكان اللقاء الحواري في مدينة عمّان الأردنية وما تثيره من شجون لدى أولئك الذين انخرطوا في العمل الفدائي منذ انطلاقة حركة التحرير الوطني الفلسطيني في سنة ١٩٦٩. ولأن في التاريخ عِبر، فقد جهد مناضلو الكتيبة لتدوين ما عايشوه، فكتب فتحي البسّ "انثيال الذاكرة، هذا ما حصل" (عمّان: دار الشروق، ٢٠٠٨)، وشفيق الغبرا "حياة غير آمنة" (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢).

بداية تجربة القائد المبكرة في عمر الخامسة عشرة كانت في حركة "فتح" التي نشأت لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي وتحرير فلسطين، وخاطبت الشعب الفلسطيني بجميع فئاته وميوله الفكرية. وتبدو هزيمة الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ تاريخاً مفصلياً في حياة الأفراد العرب ومصائرهم، فقد أيقظت الوعي ووضعته في مواجهة حقيقة الهزيمة، وهي هزيمة أنظمة في الدرجة الأولى، وأملت ضرورة الانتقال إلى المقلب الآخر، جانب المقاومة الشعبية وتشكيلاتها العسكرية.

بدأت سيرة معين الطاهر من نابلس، وبعد احتلال الضفة الغربية انتقل إلى الأردن حيث أصبح من مسؤولي التنظيم الطلابي للحركة في شمال المملكة الهاشمية، وشهد معركة الكرامة البطولية (١٩٦٨)، وأيلول/ سبتمبر الدموي (١٩٧٠)، وحين أراد الذهاب إلى القاهرة لدراسة الهندسة منعته السلطات من دخولها، فكان قدره دمشق فبيروت.

يسأله المحاوران عن معركة الكرامة ومجازر أيلول وتقويمه لهما،

فيقتصد الطاهر في الكلام، ويقول إن معركة الكرامة في اعتقاده جعلت من "فتح" تنظيماً شعبياً نجح في استقطاب المتطوعين من جميع أنحاء العالم العربي، لكنه في المقابل، يشهر سلاح النقد في وجه بعض ممارسات المقاومة في عمّان وإربد، والتي أدت إلى المواجهات مع النظام الأردني، ومنها الشعارات المرفوعة: "كل السلطة للمقاومة"، و"لا سلطة فوق سلطة المقاومة"، إلى خطف الطائرات. وأتى مؤتمر الحركة الثالث في سورية في سنة ١٩٧٣ لينقد تجربة الأردن، وانعكس ذلك في بروز قيادات انضمت إلى المجلس الثوري مثل: أبو صالح، وسعد صايل، وأبو داود، وناجي علوش، وأبو خالد العملة، وأبو موسى. واستتبع الخروج من الأردن الانتقال إلى الساحة اللبنانية وخشية بعض الفلسطينيين الناشطين فيها من تكرار ما جرى هناك. أولى التبعات كان الخلاف بين القيادة الفلسطينية و"إقليم لبنان" الذي كان يترأسه حمدان عاشور، ثم استقرت الأمور بتعيين أبو الهول مسؤولاً جديداً للإقليم، ونبيل شعث على رأس المكتب الطلابي، ليخلفهما لاحقاً صخر أبو نزار وعمر أبو حنا، وفي ذلك الوقت دخل الطاهر ومجموعته في إطار "التنظيم الطلابي". ثاني التبعات هو الجدل الفكري، وما يسميه المحاوران "تشكُّل تيار يساري جديد من مصادر ومنابع متعددة" (ص ١٨). ويُقرّ الطاهر بوجود هذا التيار الحامل وجهة نظر نقدية من القيادة وتجربة الأردن المريرة، وبأنه ضمّ: أبو حاتم، وماجد أبو شرار، وأبو صالح، ومنير شفيق، وناجي علوش، وأبو داود، وأبو نضال البنّا، فضلاً عن أحمد عبد الرحمن، وحنّا مقبل، ونزيه أبو نضال، وأبو نائل، وأبو فارس، والدكتور أبو عمر حنا، وأبو خالد الصين. وفضيلة النقاش بين هذه المجموعات أنها جعلت أفراد التنظيم الطلابي أقرب إلى بعضهم البعض، وإلى بعض القيادات، فشكلوا نواة لتيار "يمتلك برنامجاً كاملاً، ويعتمد أساساً على التنظيم الطلابي" (ص ٢٠). وأتت سنة ١٩٧٣ بحوادثها الجسام: الصدام مع الجيش اللبناني في أيار/ مايو، وحرب تشرين الأول/ أكتوبر مع إسرائيل، لتدفع في اتجاه نشوء "السريّة الطلابية" التي ساهمت في الدفاع عن "قاعدة المقاومة" في منطقة الجامعة العربية في غرب بيروت. وقد استفادت هذه السريّة من خروج مجموعات من اليسار اللبناني للالتحاق بهذا الإطار الطلابي، وتميّزت بالمشاركة في المعارك ضد العدو الصهيوني، والمساهمة في إعمار القرى المدمرة في الجنوب اللبناني، بوجود السيد موسى الصدر والسيد هاني فحص.

ويشير الطاهر إلى أنه كان لهذا التيار الناشىء مواقف من سلوك القيادة الفلسطينية السياسية، فوقف التنظيم الطلابي ضد التسوية وضد برنامج النقاط العشر الذي طرحته الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في سنة ١٩٧٣ وتبنّته منظمة التحرير برنامجاً مرحلياً، لكن على الرغم من ذلك، اضطلع التنظيم الطلابي بحراسة القيادة "من سنة ١٩٧٣ حتى سنة ١٩٨٢" (ص ٢٥). وكان معسكر

مصياف الذي ضم نحو ١٥٠ شاباً وشابة، مكاناً للتثقيف وتبادل الرأي، وأتت فرصة لقاء أبو عمار فيه مناسبة لتوكيد رفض التسوية والإصرار على تحرير الأرض المغتصبة. ويرى الطاهر أن هذا اليسار المتشكل لم تغلب عليه أي صفة، لا "الماوية" ولا "السوفياتية" على الرغم من انضمام عشرات المناضلين إليه المتأثرين بأفكار ماوتسي تونغ، مثل ميشال نوفل وإدي زنانيري، ويستعيد الدور المميز الذي أدّاه منير شفيق في سعيه لـ "تطبيق خاص للماركسية" من خلال كتابه "حول التناقض والممارسة في الثورة الفلسطينية"، ويقول إن الهمّ الرئيسي عند السريّة الطلابية، كان بناء نظرية خاصة بالثورة الفلسطينية تحاكي خصوصيتها وظرفها التاريخي. والغالب على "التيار" مواقف مستقلة تخالف في أحيان كثيرة رأي القيادات الفلسطينية واللبنانية مثل مسألة "عزل الكتائب" في إبان الحرب الأهلية، وفكرة توسيع إطار التحالفات مع شخصيات مثل السيد موسى الصدر، والمفتي الشيخ حسن خالد، والرئيس رشيد كرامي.

وفي الواقع، فإن التشكيل العسكري أتى في سياق تطورات الأزمة اللبنانية، وكان الشهيد سعد جرادات، أول قائد للسريّة الطلابية. والفكرة الأساسية التي لم تتحقق هي إنشاء ميليشيا رديفة لقوات العاصفة. ويشدد الطاهر على فكرة "التيار" والجسم الصغير داخل "فتح"، وبالتالي غياب أي هيكلية تنظيمية هرمية، على الرغم من دور المناضلين الكبير والرائد، ومنهم: أبو حسن قاسم (الذي عدّه قائداً ميدانياً)، وحمدي، ومروان كيالي، وهلال رسلان، ومنير شفيق، والدكتور عصمت مراد، وعلي أبو طوق، ومحمود العالول، ونذير أوبري، والشهيد أبو خالد جورج. وضمت الكتيبة إلى صفوفها كثيراً من العرب والإيرانيين والأتراك، وبعض اليساريين الغربيين.

وخاضت السريّة معارك على خطوط التماس في بيروت والجبل وصنين، وفي المنطقة الأخيرة فقدت جورج عسل (أبو خالد)، والمهندس طوني النمس، ومحمد شبارو، وحماد حيدر، وجمال القرى، وحرب جمجوم، وحسنين وأيمن برقاوي، ونقولا عبود. وحين استشهد سعد جرادات في منطقة البرجاوي، تولى الطاهر قيادة السريّة بادئاً بتجميعها في معسكر بيصور بغرض التأهيل والتدريب، بعد الخسائر البشرية الكبيرة التي مُنيت بها في مواقع القتال. وفي إثر معركة بحمدون مع القوات السورية (١٩٧٦) واتفاق وقف إطلاق النار، اتجهت السريّة إلى مدينة بنت جبيل لمواجهة مخططات ميليشيا سعد حداد، حيث أدت مشاركتها الفاعلة إلى تحولها إلى كتيبة ملحقة بقوات العاصفة، وتحديداً قوات القسطل في القطاع الأوسط، مع بقاء "التيار" حاضناً قادراً على الحشد، وأُطلق عليها اسم "كتيبة الجرمق" (تيمناً بأعلى قمة في فلسطين)، وخضع أفراد منها لدورات عسكرية في الخارج، فذهب علي أبو طوق ورياض إلى الصين، وخالد ومروان وحسام إلى روسيا، وجهاد إلى كوريا، وآخرون إلى فييتنام والجزائر وألمانيا. ونجح التنظيم الطلابي أيضاً

في سنة ١٩٧٨ في إنشاء "سرية بنت جبيل"، ويروي الطاهر مساهمة الكتيبة خلال الفترة ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ في القتال مع أطراف من الحركة الوطنية اللبنانية ضد مشروع سعد حداد الهادف إلى إقامة شريط حدودي عازل، ولا سيما في بنت جبيل ومارون الراس.

ويسأل المحاوران عن العلاقة مع الأهالي في قرى الجنوب وعن نظام القيم السائد لدى الكتيبة، فيؤكد الطاهر أنهم كانوا يحترمون العادات والتقاليد، ويمنعون الاعتداء على الناس وأملاكهم، وينسجون علاقات وديّة مع الكل، وخصوصاً مع حركة المحرومين التي أسسها السيد موسى الصدر، والتي تولت حركة "فتح" تدريب عناصرها. ومن خلال العلاقة الجيدة مع الدكتور مصطفى شمران رابطت مجموعات من حركة أمل مع الكتيبة وقاتلت معها في اجتياح ١٩٧٨ ضد العدو الإسرائيلي، غير أن الأمور ساءت لاحقاً بفعل الحرب العراقية ـ الإيرانية وتبعاتها على الأطراف السياسية والعسكرية، وتصاعد نفوذ حركة أمل في الجنوب وصراعها مع أطراف من الحركة الوطنية، الأمر الذي أدى ـ بحسب قول المحاورين ـ إلى انهيار مفهوم "القاعدة الآمنة" في الجنوب اللبناني.

أشّر انتصار الثورة الإسلامية في إيران في سنة ١٩٧٩ إلى مناخ جديد ستكون له عواقبه على منطقة الشرق الأوسط والعالم، ولبنان ضمناً، إذ قدّمت وجهاً جديداً للإسلام ـ وجهاً "ثورياً" ـ وأضافت بعداً فكرياً ومورداً يضاف إلى السائد من الآراء في الكتيبة. ويؤكد الطاهر دائماً على مسألة "التناقض الرئيسي" مع العدو، وبالتالي فإن الفكرة هي أن الوليد الثوري "يمكن أن يمد في عمر الثورة والنضال الفلسطيني" ضد إسرائيل (ص ٨٥)، ويعوّض خسارة مصر المكبلة باتفاقية كامب دايفيد.

يوقظ المحاوران ذكريات الاجتياح الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢ ومشاركة الكتيبة فيها، فيسرد الطاهر سجل الأعمال البطولية التي أداها أفرادها، ولا سيما في قلعة الشقيف ـ أرنون والقرى المحيطة بها، واستبسال المقاتلين في الدفاع عنها، ويشير في هذا السياق إلى دور الشهيد اليمني، عبد القادر الكحلاني، والشهيد علي أبو طوق ويعقوب سمور (راسم). وقد قاتل في القلعة "٣٤ شاباً من أصول فلسطينية ولبنانية ويمنية ومقاتل مصري، واثنان من المقاتلين الأتراك" (ص ١٠٥)، وأغلبهم استشهد في المعارك. ويضيف الطاهر أن الكتيبة قدمت نحو خمسين شهيداً في القلعة وأرنون وكفرتبنيت والنبطية وجبشيت، ثم خاضت عمليات قتالية ضد الجيش الإسرائيلي المنتشر في لبنان، وتحديداً في منطقة الجبل، ويتوقف عند عملية باص عاليه التي أوقعت نحو ستين إصابة في الجيش الإسرائيلي، وباص عرمون، وعملية أسر ثمانية جنود في رويسة البلوط استُخدموا لاحقاً في عملية تبادل الأسرى في معتقل أنصار وفي عملية "النورس"، ويرى الطاهر أن هذا النمط من العمليات النوعية لم يأخذ حقّه من التقويم والتقدير لأبطاله.

يسرد الطاهر بمرارة الانشقاق في حركة "فتح"، وجهد الكتيبة لرأب الصدع

وإقامة جسور الحوار بين المتنازعين لإيجاد تفاهم، كي تبقى البندقية موجهة نحو العدو الصهيوني وحده. ويسأل المحاوران عن مهمات الكتيبة بعد مغادرة المقاومة الفلسطينية لبنان في سنة ١٩٨٢، فيجيب الطاهر أن بعض الإخوة دخل إلى الأرض المحتلة وحضّر ونفذ عمليات نوعية، والبعض الآخر عاد إلى لبنان والأردن، وأن الانشغال الرئيسي بقي مقارعة العدو بقدر الإمكانات والفرص المتاحة، وفي هذا السياق أتى تشكيل "سرايا الجهاد" (١٩٨٣) التي تماثل في وجه من وجوهها "وحدة الشيوخ" ذات التوجه الإسلامي التي عملت داخل "فتح"، وكان من قياداتها الدكتور أحمد نوفل والدكتور عبدالله عزام والشيخ ذيب أنيس وأبو شهاب، وهي الوحدة التي انتهى دورها بعد خروج المقاومة من الأردن في سنة ١٩٧٠. وضمت السرايا التي مثّلت إطاراً مفتوحاً، الإسلاميين المجاهدين ضد إسرائيل، وحين أُنشئت حركتا "حماس" و"الجهاد" فقدت تلك السرايا مبرر وجودها. ويبدو بحسب الطاهر أن الأوضاع الدولية والإقليمية الناشئة في تسعينيات القرن العشرين المنصرم، مثل مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو، فرضت تعديلاً على "أشكال العمل" لدى "التيار" الذي ولدت منه السرية الطلابية وكتيبة الجرمق والسرايا. غير أن الثابت هو نهج مقاومة الاحتلال، الأمر الذي حدا بالطاهر ورفاقه إلى رفض اتفاق أوسلو كونه تنازلاً عن "الثوابت الوطنية"، ولو استفاد منه بعض الكوادر للعودة إلى الوطن السليب ومتابعة الكفاح من خلال تشكيل "كتائب الأقصى".

وأدت محاولة النظام السوري الإمساك بالملف الفلسطيني كاملاً إلى حصار المخيمات، وشنّ الحرب عليها من حركة أمل واللواء السادس في الجيش اللبناني، وهنا يشدد الطاهر على دور الشهيد علي أبو طوق "الأسطوري" (ص ١٤٥) في شاتيلا (استشهد في سنة ١٩٨٧)، وما أعقب ذلك من اغتيالات واعتقالات بقصد وضع لبنان تحت الوصاية السورية التامة.

عفيف عثمان
باحث وكاتب لبناني